مادة الأدب الإسلامي / المرحلة الثانية

د. ميسون محمد عبد الواحد

المحاضرة السابعة

عنوان المحاضرة: (الحطيئة ، وشعره ، ومكانته عند النقاد القدامى والمحدثين)

أولا- اسمه وحياته:

أبو مُلَيْكة جرول بن أوس بن مالك العبسي المشهور بـ الحطيئة. شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. ولد لدى بني عبس من أَمةٍ اسمها (الضراء) دعِيًّا لا يُعرفُ له نسب فشبّ محروما مظلوما لا يجد مدداً من أهله ولا سنداً من قومه، فاضطر إلى قرض الشعر يجلب به القوت، ويدفع به العدوان، وينقم به لنفسه من بيئةٍ ظلمته، ولعل هذا هو السبب في أنه اشتد في هجاء الناس، ولم يكن يسلم أحد من لسانه فقد هجا أمّه وأباه حتى إنّه هجا نفسه.

يعد الحطيئة امتداداً لمدرسة فنية أو مجموعة من الشعراء الذين كانوا قبل الإسلام قد عنوا بصياغة أشعارهم وتنقيحها وإجادة نظمها لغة واسلوباً ومعنى ، فهو امتدادٌ لمذهب أوس بن حجر وبشامة بن الغدير ، وزهير بن أبي سلمى ، وكعب بن زهير وكان يروي شعرهما.

والحطيئة لقب أطلق عليه واشتهر به، وقد اختلف في سبب إطلاق هذا اللقب عليه، فقيل إنه لقب به لقصره وقربه من الأرض، فالحطيئة كما ورد في لسان العرب: اسم مصغر من حطأة وتعني الضرب بالأرض أو الرجل القصير، وقيل إنه سمي بالحطيئة لدمامة خلقه إذ ولد أفقمًا أي لديه تشوه في وجهه حيث أن فكّه السفلي يبدو أكثر بروزًا من العلوي، وتبدو الروايتان متقاربتان في بيان سبب التسمية، وهذا ما يرجح صحتها.

ثانياً- الهجاء:

كان هجاء الحطيئة شديدا وبذيئا شمل الهجاء الشخصي والقبلي. وهو وإن كان لا يركز على شتم الأعراض ، والسباب الفاحش إلا أنه تناول الجوانب الخَلْقية

والخصال الأخلاقية الاجتماعية بالتشويه لدرجة تجعلها تثير الاشمئزاز والسخرية. وقد بالغ في هجائه حتى شمل أمه وزوج أمه، وزوجته وأخواله، وحتى نفسه.

وقصته في هجاء الزبرقان مشهورة عند مؤرخي الأدب ونقاده. إذ كان الزبرقان بن بدر سيدا في قومه، وكان بينه وبين بني عمه آل قريع منافسة. فاتفق أن نزل الحطيئة في جوار الزبرقان ثم انتقل إلى جوار بغيض بن عامر بن شمّاس بن لأي بن جعفر (الملقّب بأنف الناقة) بن قريع في حديث طويل ، ثم أخذ بمدح بغيض بن شمّاس وهجاء الزبرقان بن بدر. من ذلك قوله:

والله، ما معشر لاموا امرأ جنبا ... في آل لأي بن شمّاس بأكياس

ما كان ذنب بغيض، لا أبا لكم ... في بائس جاء يحدو آخر الناس

لمّا بدا لي منكم عيب أنفسكم ... ولم يكن لجراحي منكم آس

أزمعت يأسا مبينا من نوالكم ... ولن يرى طاردا للحرّ كالياس

جار لقوم أطالوا هون منزله ... وغادروه مقيما بين أرماس

ملّوا قراه، وهرّته كلابهم ... وجرّحوه بأنياب وأضراس

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

فشكاه الزبرقان إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– وكان عمر أعلم الناس بالشعر ، ولكنه أراد أن تقوم الحجّة على الحطيئة من شاعر مثله فاستدعى حسان بن ثابت وقال له: ما تقول، أهجاه؟ فقال حسان ذرق عليه! (كناية عن شدة هذا الهجاء وقبحه). فألقى عمر عند ذلك الحطيئة في السجن. فقال الحطيئة يستشفع عمر ويذكر له ان حبسه قد حال بينه وبين الاهتمام بأولاده:

ما ذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ ... حمر الحواصل لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة ... فارحم–عليك سلام الله–يا عمر

فخلّى عمر سبيل الحطيئة وأخذ عليه ألاّ يهجو أحدا من المسلمين ثم أعطاه ثلاثة آلاف درهم يستغني بها عن الهجاء.

وهجا أمه، وهو يدعو عليها أن تلاقي العقوق من أبنائها قائلاً:

جــزاكِ الله خيــراً مــن عجــوزٍ ولقــاكِ العقــوقَ مــن البنــينِ

وقال فيها ايضاً مصوراً غضبهُ:

تَنَحِّــي فَاجْلِسِــي عَنِّــي بَعِيــدًا أَرَاحَ اللَّهُ مِنْــــك الْعَالَمِينَـــا

أغربـــالا إِذَا اُسْــتُوْدِعَتْ سِــرًّا وَكَانُونَـــا عَلَـــى المتحـــدثينا

وهجا الحطيئة زوج أمه لأن شاءت ان تزيد من معاناته وشعوره بالحطة وذلك فيما يخص نسبه ، فقد كان زوجها دعياً مطعوناً في نسبه فزادت الطين بلة وهي أن أبا إخوته وزوج أمه الجديد لقيط.

ووصف أبو عبيدة الحطيئة ببذائة لسانه ، وهجائه السليط بقوله: (كان الحطيئة بذيئاً هجاء فالتمس ذات يوم انساناً فلم يجده، وضاق عليه ذلك فأنشأ يقول:

أرى لــي وجهــاً شــوهَ اللهُ خلقــه فقــبح مــن وجــهٍ وقــبح حاملــهُ

وهذا البيت لايدل على بذاءة لسانه بل هو دليل على روح السخرية المتأصلة في نفس الحطيئة ، فهو من أولئك الذين أحسوا ببشاعة خلقهم فلم ينطووا على أنفسهم ولم ينزووا عن العالم بل حاولوا أن يتغلبوا على هذه العلة ليبدوا أمام الناس غير مبالين بها.

أما هجاؤه لزوجته فلا يمكن أن يحمل إلا على محمل الهزل والسخرية والفكاهة أيضاً وذلك لأننا نجد علاقته بزوجته كانت علاقة طيبة وأن عاطفته نحو اسرته قوية جداً وذكر من هجاؤه لزوجته قوله:

أطــوفُ مـــا أطــوفُ ثــم آوي إلـــى بيـــتٍ قعيدتـــهُ لكـــاعُ

وأخباره الاخرى تبين علاقته بأهله وزوجته وبناته، وهو لا عمل له ولا مورد ، وعشيرته قد أخذوا حقه من النخيل فهم يزرعون وينعمون بالخير وحرموه حقه.

ثالثا- آراء النقاد القدماء والمحدثين فيه.

وصف القدماء وبعض المحدثين الحطيئة بالجشع والطمع والبخل، والتنقل بين القبائل يمدح هذا ويهجوا ذلك ، ثم ينتقل فيهجوا من مدحه دون أن يستشعر بشيء من الوفاء لممدوحيه السابقين ، ولايعتوره أي خجل من ذلك .

وقال عنه ابن سلام واصفا شعره :(وكان الحطيئة متين الشعر ، شرود القافية). وقد وصفه الاصمعي بقوله :(كان الحطيئة جشعاً سؤولاً ملحفاً دنئ النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً ، قبيح المنظر ، رث الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين).

وقد أفرد له صاحب الأغاني ترجمة وافية في كتابه ، و قدمه بقوله:(و هو من فحول الشعراء و متقدميهم و فصائحهم ، متصرف في جميع فنون الشعر من المديح و الفخر و النسيب ، مجيدا في ذلك اجمع).

ووصف أبو الفرج الأصفهاني الحطيئة بقوله:(وكان ذا شر وسفه ، ونسبه متدافع بين القبائل ، وكان ينتمي الى واحدة منها، إذا غضب على الاخرى). ووصفه أيضاً بقوله :(وكانوا يقولون بأن الحطيئة إذا غضب على بني عبس يقول أنا من بني هذيل ، وإذا غضب على بني هذيل قال:أنا من عبس) فهو لا يعرف له أب على وجه الحقيقة، واذا اراد معرفة ذلك عن طريق الاستفسار من امه خلطت عليه الأمر فقال في ذلك :

تَقولُ لِيَ الضَراءُ لَستَ لِواحِدٍ وَلا اِثنَينِ فَاِنظُر كَيفَ شِركُ أولَئِكا

وَأَنتَ اِمرُؤٌ تَبغي أَباً قَد ضَلَلتَهُ هَبِلتَ أَلَمّا تَستَفِق مِن ضَلالِكا

فهذان البيتان يصوران ان حقيقة موقف الحطيئة في قلقه في الانتساب الى قبيلة من القبائل مادامت امه نفسها لا يقر لها قرار ولا تستطيع إن تدله عليه. وهكذا يقول النقاد والأدباء بأنه لم يخلص لقبيلته، فأي قبيلة يختار ولو صدقته أمه القول لبقي في قبيلته يدافع عنها ويخلص لها، وفي هذا وذاك لا ذنب له فيما جنته أمه، فهو ابن معذب يشعر بالمعاناة من خطأ أمه .

ومن الباحثين المحدثين ، يرى الدكتور طه حسين في الحطيئة وهجائه فيقول: (كان الحطيئة هجاء لكن هجاءه أقل فحشا من هجاء أستاذيه أوس و زهير و لهذين الشاعرين من الهجو ما نستحي أن نورده في هذا الكتاب فأما هجاء الحطيئة فهو على شدته ولذعه قليل الحظ من الفحش وربما غلبة عليه العفة وهو حين يقصد إلى الهجاء ، إنما ينال الناس من قبل منزلتهم الاجتماعية ، و ما كان العرب يحمدونه أو يكرهونه من الأخلاق و الخصال).

وقال بروكلمان :(يعد الحطيئة أهجى الشعراء القدامى ، و إلى نبوغه في الهجاء يرجع الفضل في بقاء شعره).

ويقول الدكتور عناد غزوان :(إن الحطيئة يجابه الواقع بصراحة و جرأة فلم يجد ما يمنعه من تعريف الواقع بحقيقة مأساته بعد أن تنكر له لفظه ، أنه يتحداه و يسخط عليه ، أن ذاته البريئة لم تعد تحتمل العذاب ، الإهانة ، الذل ، فانطلق صوته الجريح متمردا ساخرا يصور ألم السنين التي ذاق مرارتها طفلا بريئا أو صبيا يافعا أو شابا محروما).

ويرى الدكتور نعمان طه أمين: (أن الحطيئة على الرغم من أقوال المؤرخين القدامى لم يكن يخلو من صفات أقل ما يقال فيها إنه لا تخرج من إطار الإنسانية العام الذي كاد ينتزعه منه المؤرخون الأقدمون انتزاعا).

رابعا– المعاني الإنسانية في شعر الحطيئة

وأخيراً فان الحطيئة مع كثرة هجائه وفاقته وسعيه الى مدح الأشراف طلباً للمال الذي يعتاش منه كان يحسب للوفاء حسابه، وللكرامة حسابها أيضاً . ونلحظ هذا الاحساس الإنساني في قصيدته التي يقول فيها:

وَطاوي ثَلاثٍ عاصِبِ البَطنِ مُرمِلٍ ... بِتيهاءَ لَم يَعرِف بِها ساكِنٌ رَسما

أَخي جَفوَةٍ فيهِ مِنَ الإِنسِ وَحشَةٌ ... يَرى البُؤسَ فيها مِن شَراسَتِهِ نُعما

وَأَفرَدَ في شِعبٍ عَجُوزاً إِزائَها ... ثُلاثَةُ أَشباحٍ تَخالُهُمُ بَهما

رَأى شَبَحاً وَسطَ الظَلامِ فَراعَهُ ... فَلَمّا بَدا ضَيفاً تَسَوَّرَ وَاِهتَمّا

وَقـــالَ اِبنُـــهُ لَمّـــا رَآهُ بِحَيـــرَةٍ ... أَيـا أَبَـتِ اِذبَحنـي وَيَسِّـر لَـهُ طُعمـا

وَلا تَعتَـذِر بِالعُـدمِ عَـلَّ الَّـذي طَـرا ... يَظُـنُّ لَنـا مـالاً فَيوسِـعُنا ذَمّـا

فَـرَوّى قَلـيلاً ثُـمَّ أَحجَـمَ بُرهَـةً ... وَإِن هُـوَ لَـم يَـذبَح فَتـاهُ فَقَد هَمّـا

فَبَينـا هُمـا عَنَّت عَلـى البُعدِ عانَـةٌ ... قَـدِ اِنتَظَمَـت مِـن خَلـفِ مِسـحَلِها

عِطاشاً تُريدُ الماءَ فَانسابَ نَحوَها ... عَلـى أَنَّـهُ مِنهـا إِلـى دَمِهـا أَظمـا

فَأَمهَلَهـا حَتّـى تَـرَوَّت عِطاشُـها ... فَأَرسَـلَ فيهـا مِـن كِنانَتِـهِ سَـهما

فَخَرَّت نَحوصٌ ذاتُ جَحشٍ سَمينَةٌ ... قَدِ اِكتَنَزَت لَحماً وَقَد طُبِّقَت شَحما

فَيـا بِشـرَهُ إِذ جَرَّهـا نَحـوَ قَومِـهِ ... وَيـا بِشـرَهُم لَمّـا رَأَوا كَلمَهـا يَـدمى

فَباتَوا كِراماً قَد قَضوا حَقَّ ضَيفِهِم ... فَلَم يَغرِموا غُرماً وَقَد غَنِموا غُنما

وَبـاتَ أَبـوهُم مِـن بَشاشَـتِهِ أَبـاً ... لِضَـيفِهِمُ وَالأُمُّ مِـن بِشـرِها أُمّـا

بدأ الشاعر قصيدته بوصف حال الأب وما يبدو عليه من علامات البؤس والفقر، فهو يعاني من الجوع منذ ثلاث ليالي، ولذلك يستهلُّ الشاعر صوره الجميلة بصورة الأب وقد عصب بطنه بعد نفاذ زاده في الصحراء الخالية من السكان، ولا يبدو عليه أيّ أثر للنعمة، يعاني من الوحشة والوحدة ما يعاني، حتى بات يرى فقره نعمة مقارنة مع ما يعانيه من وحدة ووحشة. ثم ينتقل بنا الشاعر بأسلوبه الجميل يصف حال هذا الأب وأولاده وزوجته الذين يعيشون دون طعام أو شراب، فتبدو عليهم قسوة الحياة؛ حفاة، عراة، ما اغتذوا خبز مَلَّة، هذه القسوة وهذا الجوع حوَّلهم إلى أشباح، فهم لا يعرفون للخبز طعماً مذ خُلقوا.

وهذه المقدِّمة وضعنا فيها الشاعر تمهيداً لبدء أحداث القصة عندما رأى الأب شبحاً قادماً من بعيد، هذا الشبح أثار في نفسه الخوف والريبة، ولكن عندما تبيّن أنه ضيف ثار وانفعل واعتراه الهم، وشرع بالتَّوسل إلى الله أن يرزقه الطعام ليقدِّمه

للضيف .وعندما رآه ولده في حيرة من أمره قال له :اذبحني وقدِّم له لحمي طعاماً ولا تعتذر له حتى لا يظن أن لدينا المال ونمنعه فيذهب بنا ذمّاً بين القبائل.

بدأ الأب التفكير بالعرض المغري الذي قدَّمه الابن، وبعد تفكير عميق بين التَّردد والقلق همَّ بذبحه، وفجأة تظهر من بعيد قطعان من البقر الوحشي تقصد عين الماء، فانساب نحوها، وأمهلها لتروي عطشها، فاصطاد من بينها واحدة سمينة، بها بشَّر أهله وتخلَّص من دائرة الإحراج أمام الضَّيف.

كما وفّق الشاعر في مطلع قصيدته، وُفِّق في اللقطة الختاميّة، حيث أشعرنا بنهاية القصة القصيدة إذ أوحى لنا بذلك عندما قال: فيا بشره إذ جرَّها نحو قومه.

فالقصيدة اشتملت على عناصر القصة نحو: (المكان والزمان والشخوص والسرد والحوار والوصف والحبكة التي تشتمل على: المقدمة والعرض والخاتمة أول الحل).